# يوم دفنتُ صديقًا

• محمد بركات*

البارحة، كنّا صديقين نتنزّه على رصيف الكلام. طالت الكلماتُ حتى تحوّلَ الرصيفُ إلى حلقةٍ، أوّلُها آخرُها. فاستجمعتُ غضبي، وفتحتُ ثغرةً في فم الأرض، ودفنتُ صديقي.

مات من شدّة المسافة بين كلماته وكلماتي. ذَبُل من افتراق العشب عن العشب. فصار ذلك الرصيفُ صديقي. أزوره كما يَفعل الأصدقاء. أطمئنُّ على قبور أصدقائي. أتمعّنُ في جرائمي وأُطَمئِنُ انتظاراتي على أبواب الموت.

منذ الدّفن الأوّل، منذ الصديق الثاني بعد الدفن الأوّل، منذ افتراق العشب عن العشب لأوّل مرّة، بدأتُ أَكْتشف ميولي الحانوتية.

صارت أيامي مقابرَ محتملةً لجميع مَنْ حولي.

صارت الساعة انتظارًا لفتح كتاب الأرض.

الأرصفةُ لم تعد سماءَ الأرجل المتعبة: صارت قبورًا يومية؛ سماءً لأجسادٍ أَتْعبها وهنُ الكلمات وقسوةُ المسافة الفاصلة بين جسدٍ وكلمة.

صار الموت استمرارًا. أَدْفنهم الواحدَ تلو الآخر. أطمئنُّ على أمكنةٍ لن يغادروها مهما ابتعدوا. أَفْتح فراغًا في اللّحظة وأحوِّط المكانَ بحدودٍ تَمْنعهم الفرارَ من مقصلة الوقت.

حينئذٍ، تصبح العودةُ سهلةً، موسميةً كانت أو سنوية، أو حتى أبدية.

منذ القتيل الأوّل، صار الرصيف مقبرة. وصرتُ حانوتيًا. أدير الموتَ بعقرب أيامي. صرتُ مجرمًا يتحيّن القبور، وقبرًا يَستجمع الأموات ليعيد ترتيبَ أبجدية أشلائه فوق أنقاض الموتى.

صرتُ أولدُ من جديد كلّما دفنتُ صديقًا.

صار المرورُ اليوميُّ على أرصفة الوقت والكلام دعساتٍ قاسيةً على الموتى الذين زَرعتُ بهم طرقاتي.

لو أنّ الأرصفة قبورٌ فعلاً،

لو أنّنا نعلن الأنيابَ التي تعيشُ فينا،

لو أنّنا قبورٌ نتّسع لجميع المحتضرين،

لما كانت الأرضُ جامَلَتْنا فوق صدرها، ولما حرصنا على الأوكسجين.

* * *

يومَ توقفتُ عن الدفن صرتُ ميتًا.

مَنْ لا يدفنْ أصدقاءَه لا يحيَ.

تلك الولادة المستمرّة، التي تصفّف ما يَهْرب من شذرات الحياة، هي التي تنظّم ما يُفْلت من غفوةٍ بين نومٍ ونومٍ.

**بيروت**

---

* ـ كاتب لبنانيّ شابّ.